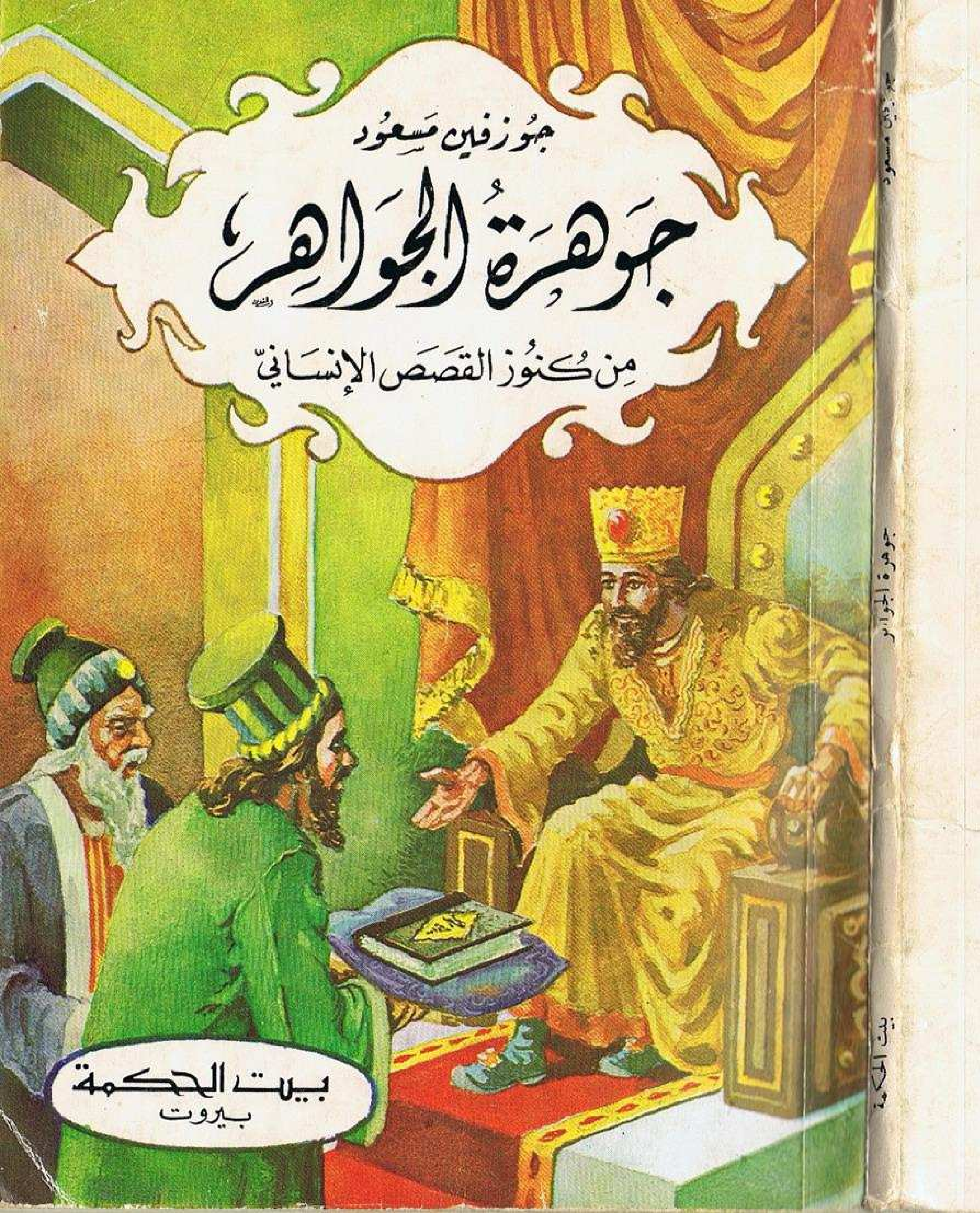


جوزفين مسعود
جوهرة الجواهر
بيت الحكمة

منشوراتنا القصصية

يصدرها : بيت الحكمة - بيروت

الثمن ٤٥٠ ق.ل.

جوزفين مسعود

جوهرة الجواهر

مِن كنوز القصص الإنساني

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة الثانية ، بيروت – لبنان ، ايار (مايو) ١٩٧٧

جوهرة الجواهر

١

إستوى « كسرى أنو شروان » على عرشه .
وجلس عن يمينه وليُّ عهده ، وعن يساره وزيرُه وكاتِمُ أسراره « بُزَرْجَمهْر » .

إمتلأَت قاعة العرش بالعلماء والأدباء والشعراء . فاليوم هو يومُ العلمِ والأدب ، يَستقبلُ فيه الملكُ رُسُلَه الذين جابُوا المَعْمورَ ليأتُوا بأندرِ الكتبِ وأثمنِها . وها هم الرُّسُلُ يتوافدون إلى قصره ليقدِّموا له ما حملوه إليه من أسفارهم .

أخذ الحاجب يُعلنُ أسماء الوافِدين ، فيَدخل الواحدُ منهم ، فيسجُدُ للملك ، ويسلّم وزيرَه الكتابَ ، فيدوّن « بزرجمهر » اسم الرسول ، واسمِ كتابه ، وقيمةَ المكافأة التي يستحقُّها ، ثم يُشير إليه بالجلوس . وقد جرَت الامورُ على هذه الحالِ حتى تمَّ تسليمُ الكتبِ كلِّها .

وفجأة دخل القاعةَ أربعةُ شبّان مفتولي السّواعدِ ، يحملون بين أيديهم صُندوقاً كبيراً من خشب الأبنوس ، في داخله أكياسٌ من الذّهب الرّنان ، مختلفةُ الأحجامِ والألوان . وضعوا الصندوق أمام « بزرجمهر » ، نظر الوزير إلى « كسرى » ، فابتسم ، وكانت ابتسامة الملك إيذاناً بتوزيع المكافآت على أصحابها .

★

... وخلَتْ قاعة العرش إلاّ من الملك ووليّ عهده ووزيرِه ، فتنفَّس « كسرى » الصُّعَداء . أخيراً !.. أخيراً سيَخلو إلى لَذته الكُبرى ، سيخلو إلى كتبه النَّفيسة ! وراح يتناول الكتب الواحدَ تلوَ الآخرِ ، فيُقلِّبُ صَفحاتِها بشوق ، ويقرأ فيها بشغفٍ ، ثم يَدفعها إلى وزيره . وكان منها كتبُ الفلسفة والطبّ والفلك والكيمياء ، وكتبُ الأدب والشعر والأمثال .

حمل « بزرجمهر » الكتبَ إلى خزائنِ الملك ، فرتّبها فيها وأقفلَ عليها . ثم عاد إلى الملك وقال له :

— سيّدي ومولاي ! إنّ حصيلةَ اليومِ من الكتب قد فاقت غيرَها قيمةً وعدداً . فأرجو أن يكونَ مولاي سعيداً بما حصل عليه .

— سروري اليوم كبيرٌ يا « بزرجمهر » . ولكنّني

لستَ سعيداً . ولن تَتِمَّ لي سعادةٌ إلاّ بحصولي على « جوهرة الجواهر » .

ـــ سيِّدي ومولاي ! دَعْ عنك هذا الأمرَ ، واعلَمْ أنَّه من المستحيلات . فإنَّ « جوهرة الجواهر » مخبَّأةٌ في خزائن ملوك « الهند » ، يحافظون عليهـــا محافظتَهم على أرواحهـــم . فكيف ، بالله ، نَقتحِم خزائنَهم ، ونَحمل منها ما نُريد ؟

ـــ يا « بزرجمهر » ، لن أتخلَّى عن حُلمي هـذا مهما تَكثُرِ المخاطِرُ وتَعظُمِ المهالِكُ . كانت « جوهرة الجواهر » حُـــلمَ أجدادي من قبلي ، فباتت اليومَ حلمي ، وهي من بعدي حلمُ أبنائي وأحفادي .

ثم التفتَ إلى وليِّ عهده وخاطبه قائلاً :

ـــ أليس الأمرُ كذلك يا بُنَيَّ ؟

أجابه الأميرُ :

ـــ سيِّدي الوالد ! ما هذه الجوهرةُ التي تتحدَّثان عنها ؟ وهل هنالك جوهرة أغلى ممَّا في خزائننا من جواهرَ ونفائسَ وحُليٍّ ؟

هزَّ الملك رأسَه ، وتنهَّد ، وقال :

ـــ يا ولدي العزيز ! ليس في ملوك الأرضِ مَن يَملِك ما أملك من جواهرَ ولآلىء . ولكنَّ لمعـــانَ جواهري ولآلِئي يتضاءل إزاءَ « جوهرة الجواهر » . « فجوهرة الجواهر » ، يا ابني ، كتابٌ نفيس نادر ، وإنّي لَمُستعدٌّ أن أُضحِّي بنصف مملكتي في سبيل الحصولِ عليـه .

ـــ أحقًّا تقول يا والدي ؟ ولكنْ من أيَّة جواهرَ صُنع هذا الكتابُ حتى يستحقَّ منك هذه الحسْرةَ ، وحتى تضحِّي فيه بنصف مملكتك ؟ !

ـــ هو كتاب لم يُصنع من الجواهر ، ولكنَّ

معانيه وحِكَمه تفوق جواهر الأرض كلها .

ــ وما دام الكتابُ على ما تَصِفُ ، فما يَمنعُك من شرائه ، وأنت القادرُ على بَذْل الأَموالِ الطائلة في شراء الكتب ؟

ــ ليس الأمرُ بالسُّهولة التي تَظُنُّ . فالكتاب وَديعةٌ ثمينة في خزائن ملوك « الهند » منذ آلافِ السنين ، لا يطَّلعُ عليه إلاّ ملوكُهم وعلماؤهم وفلاسفتُهم ؛ ولا سبيلَ للوصول إليه . لأنّ ملوك « الهند » يعتبرونه رمزاً لحضارتهم ، ويرَونَ في خروجه من بلادهم زَوالاً لكِيانهم .

ــ يا لَعَجبِ ما أَسمعُ ! وهل يُعقَلُ أن يَبلُغ كتابٌ من الكتب ، كائناً ما كان ، هذه القيمةَ وهذه المَنْزلةَ ؟

ــ إنّ « لجوهرة الجواهر » قيمةً علميّة وأخلاقيّة

وسياسيَّة خَبرَها ملوكُ « الهند » ، وأحبُّوا الاحتفاظَ بنَفْعها لأَنفُسهم دونَ سواهم . وأنا أُدرك الفائدةَ التي تَجنيها بلادُنا من هذا الكتاب . لذلك تراني أَتمزَّقُ شوقاً لامتلاكه في خزائني . وإنّ لي إليك رجاءً ، وهو أن تَعِدَني ببذل مَساعيك وجهودِك للحصول على هذا الكتاب ، إذا لم أَتمكَّن أنا من الحصول عليه .

ــ رجاؤك يا والدي أمرٌ ، وطاعتي لك سرورٌ وواجب . ولك منِّي وَعْدُ الولدِ المُطيع ، المقدرَ قَدْرَ والده ، أن أسلُك الطريقَ الذي سلكتَ أنت . ولكنِّي أَعلم عِلْمَ اليقينِ أنّ جهودَك ستُثمِر ، وأنَّ رغبتَك ستتحقَّق ، لأَنّك لا تعرف الخوفَ ، ولا تَضعُفُ لك عزيمةٌ أمام الصِّعاب . لكنْ ، بالله عليك يا والدي ، قُصَّ عليَّ قصَّةَ هذا الكتابِ ،

وأخبِرني بما تعرفه عن قيمته وفائدته .

ـــ بورِكتَ يا ابني . وإنّي لَأشكرُ لك حُسن رأيك وبُعدَ هِمّتك . ولقد أثلَجْتَ صدري بكلامك ، وجدّدت إيماني بمَسْعاي . يا « بزرجمهر » ، قُمْ بنا إلى المكتبة . هناك نقضي الليلَ ، وتقصُّ أنت على وليّ عهدي حكايةَ « جوهرة الجواهر » .

٢

قال « بزرجمهر » لوليّ العهد :

ـــ لا بُدَّ ، أيُّها الأميرُ السعيدُ ، أنك سمعت « بالاسكندر المقدونيّ » . لقّبه ملوكنا « بذي القَرْنين » ، لأنه ملَكَ الغربَ والشرق معاً . ولقد جاء بلادَنا بعد ما دانتْ له ممالكُ الحِثّيين والفينيقيّين والأشوريّين والمصريّين ، فاستولى عليها ، ومنها انتقل إلى بلاد « الهند » و « الصين » .

« سمعتْ بقوّته وبأسه بلادُ العالم ، فخافتْه ملوكُها ، إلاّ ملِكاً شابّاً من ملوك « الهند » يُدعى « فور » . وقد وُهِبَ « فور » من العقل والشجاعة والتدبير ما وُهب « الاسكندر » ، فصمَّم على محاربة الفاتحِ الغازي .

« قام « فور » يستعدُّ للمعركة المنتظَرة . جنَّدَ شعبَه رجالاً ونساءً ، شيوخاً وأطفالاً . باع مُجوهَراته وحُليَّه وتُحفَه ، واشترى بثمنها أقوى الأسلحةِ وأفتكَها . جمع من بلاد « الهند » و « السِّند » الفِيَلةَ المُحارِبة والسِّباعَ الضارية . إشترى من جزيرة العرب الخيولَ الأصيلة . وبعد ما تمَّ له تحصينُ البلاد بالأسوار العالية المنيعة ، بات مطمئنَّ البالِ ، ثابتَ القلب .

« وصلت أخبار « فور » واستعداداتِه إلى « الاسكندر » ، فشعر ، لأوَّل مرَّةٍ في حياته ،

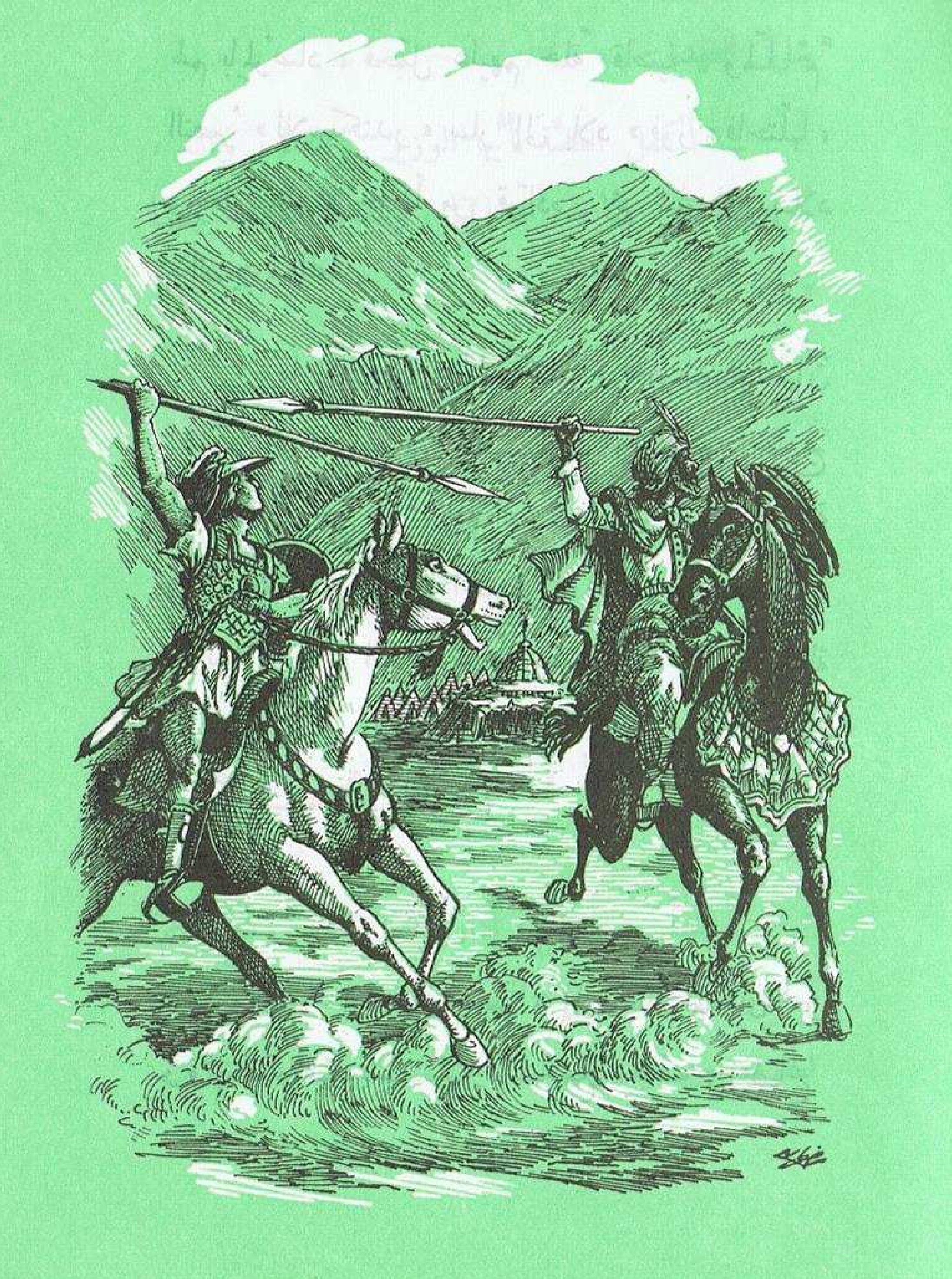
بخُطورة الموقِف . عرَف أنّه أمام عدوٍّ يُوازيه جرأةً وعبقريّة وتصميماً . لذلك أرسل إلى بلاده ، وإلى البلاد الخاضعة له، يَطلُب أعظمَ القوّاد ، وأكبرَ المهندسين . وطلب من أمهر الصُّنّاع لديه أن يصنعوا له خيلاً من النّحاس جَوْفاءَ ، تَفوق أحجامُها أحجامَ أَكبرِ الفيَلة ، وهي تَجري على بَكَرٍ من حَديد ، إذا دُفعت مرّت مسرعةً كالسِّهام . وبعد مُدّةٍ وجيزة صنع العمّال من هذه الخيولِ العجيبة عدداً يوازي عددَ الفيلة في الجيش الهنديّ .

« ثم نادى « الاسكندر » علماءَ الفلكِ والنجوم ، وطلب منهم أن يعيِّنوا له الوقتَ المناسبَ للهجوم . وقبل اليومِ المحدّد أوفد رُسُلَه إلى « فور » يدعوه إلى طاعته قبل فَواتِ الأوان ، فكان جواب «فور» : الحرب ! الحرب ! ولا شيءَ سواها !

« زحف جيش « الاسكندر » تتقدَّمُه الخيولُ النُّحاسيَّة ، وقد حُشِيتْ بالكبريت والموادِّ الملتهبة . وما إن شاهد « الاسكندر » هجومَ الفيلة الهنديَّةِ المقاتِلة حتى أمرَ قوّادَه فدفعوا الخيولَ النحاسيّة الملتهبة ، فطارت كالسِّهام تَلتحمُ بالفيلة المدرَّبة والسِّباعِ الضارية .

« وتعالت أَصواتُ الفيلة وقد احترقت خراطيمها بالخيول النحاسيّة المُحماة بالنار . وما لبثت أن ارتدّت على أَعقابها هائجة ، ترمي الفرسانَ الهُنود ، وتدوسُ الجنود المشاةَ . ودبّت البلبلةُ في الجيوش الهنديّة ، وفقد « فور » كلَّ سيطرةٍ عليها لهَوْل المصيبة وقوّةِ المفاجأة . وهنا لَعْلَعَ صوتُ « الاسكندر » صائحاً :

ــ يا ملك « الهند » ! أُنظُرْ إلى فيلتك الهاربة وجيوشك المنهزمة . دَعْ عنك هذا العنادَ ، وابرُز



إلى مقاتلتي منفرداً . فمن خرج منّا فائزاً كان جيشه هو المنتصر .

« تقــدَّم « فور » على صَهْوة جواده الأسود ، وأسرع إليه « الاسكندر » على حصانه الأبيض . ودام القتال بين الاثنين ساعاتٍ طِوالاً ، لم تُكتَب فيها الغَلَبَةُ لأحد . وخاف « الاسكندر » أن تدوم الحالة على هذا الشَّكل ، أو أن تنقلب النتيجة إلى ما لا تُحمَدُ عُقْباه ، فعمدَ إلى الحيلة ينتصر بها على شجاعة « فور » . وفيما هو ينازله صاح صيحةً عظيمة اهتزَّت لها ساحــة المعركة ، وتردَّدت أصداؤها في أطراف الجيشين . والتفت «فور» إلى الوراء مستطلعاً ، فعاجله « الاسكندر » بطعنة من رُمحـه أوقعته عن حصانه ، ثم ضربه بسيفه ضربـةً أودت بحياته . فلمّا رأى الهنود ما حلَّ بقائدهم هجموا على « الاسكندر » هجومَ الأسودِ . ولكنّ جيشَ « الاسكندر » كان

لهم بالمِرْصاد ، فحمَل عليهم حملةً قاضية . ولمّا تمّ النصرُ « للاسكندر » سار إلى بلاد « فور » فاحتلّها ، وجعل عليها حاكماً من قوّاده . ثم سار إلى بلاد « الصين » فاتحاً .

« وما إن غاب « الاسكندر » بجيوشه ، واطمأنّ الهنود إلى انغماسه في المعارك والفُتوحِ خارجَ أراضيهم ، حتى هبُّوا إلى القتال في سبيل الحريّة والاستقلال ؛ فنازلوا الجيوشَ المُحتَلَّةَ وطردُوها ، وولَّوا حُكمَ البلاد شابّاً مِقْداماً من سُلالة ملوكهم يدعى « دَبْشَليم » ، كان قد تزعّم حركة التَّوْعيةِ والمقاومة » .

★

ولمّا وصل « بزرجمهر » إلى هذا المكانِ من رِوايته توقّفَ قليلاً ليَستجمع أنفاسَه . فصاح

وليُّ العهد :

ــ أكمل القصّةَ أيُّها الوزير . فلقد ، واللهِ ، أثرتَ شوقي لمتابعة أحداثِها ، ولمعرفة العَلاقة بينها وبين « جوهرة الجواهر » .

إلتفت « كسرى » إلى ولده وقال له مبتسماً :

ــ مَهْلاً يا بُنَيَّ ! دَعْ وزيري يستعيد أنفاسَه ، ودَعْنا جميعاً نُصيبُ شيئاً من الطعام والشراب . وبعد ذلك يُكمل القصّةَ ويُجيبك عن كلّ سؤال يدور في رأسك .

وبعدما أكلُوا وشربوا تابع « بزرجمهر » سَرْدَه ، قال :

ــ تسلّمَ « دبشليم » إدارةَ البلاد ، وكان دائمَ الحَذَرِ من جواسيس « الاسكندر » وعُمّالِه ، دائمَ الخوفِ من عودته إلى البلاد بجيوشه . وبعد مُدّةٍ ترامت

إليه أنباءُ موتِ « الاسكندر » وانقسامِ مملكته العظيمة بين قوّاده ، ثم أنباءُ القتال بين هؤلاء القوّاد ؛ فارتاحت نفس « دبشليم » إلى هذه الأنباء ، وزال حذره ، وتبدّد خوفه ، وزاده الاطمئنانُ قوّةً وجرأة . ولكنّه ما لبث أن تحوّلَ عن طريق العدل والحقّ ، فراح يَستبدُّ بالشعب ، ويَظلِم جيرانه من الملوك والحُكّام.

« وأخذ الناس يتحدّثون سِرّاً عن ظُلمه وطُغيانه . ووصلت الأخبار إلى « بَيْدَبا » ، فيلسوفِ البلاد ورجلها الحكيم . كان يعيش متنسّكاً زاهداً ، وحولَه تلاميذُه يقرأون عليه ويطالعون ويؤلّفون . ثم بدأت وفود المظلومين ، ووفودُ حُكماء البلاد وأعيانِها ، تفِدُ إليه ، طالبةً منه أن يُعينها بحكمته على دَفْع الظلم عن البلاد والرعيّة .

« وفي إحدى الأُمسيّات جمع « بيدبا » تلاميذه وقال لهم :

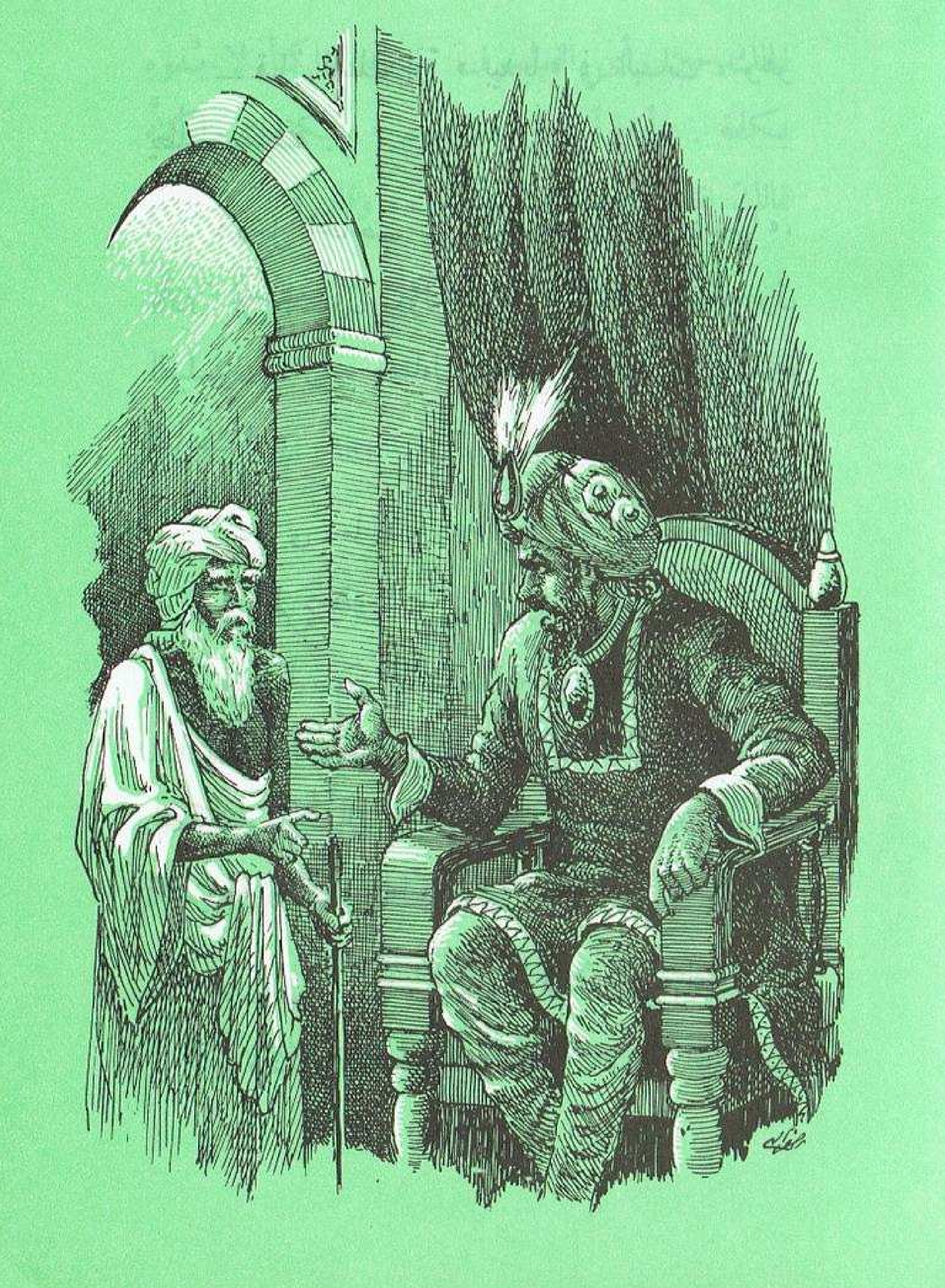
ــ يا أبنائي ، بلادُنا في خطر شديد : فالعدوُّ على الأَبواب ، والحاكم يَظلِم ويستبدّ ، فكيف للشعب أن يحاربَ في سبيل بلادٍ هو فيها حقيرٌ ذليل ؟

« صاح أحد التلامِذة :

ــ ما العملُ يا معلِّمُ ؟ أَشِرْ علينا بحكمتك قبل فَواتِ الأَوان .

ــ إنّ واجب الحكماء والفلاسفة هو أن يُعينوا الناسَ في مثل هذه الأحوال . علينا أن نرُدَّ الملك عن ظلمه وضَلاله ، وأن نعود به إلى طريق الخير والصّلاح .

ــ وكيف ذلك أيُّها الحكيمُ ؟ أنت أدرى



النَّاسِ بالملك ، فهو في ظلمه نَمِرٌ كاسرٌ .

ــ لقــد سمعتُ الكثيرَ عن أحوال الملك وأخلاقِه . ولكنّ صعوبةَ المهمَّة لا تَحُولُ دونَ قيامي إلى واجبي . سأذهب لمقابلة الملك ، وستكونون أنتم بانتظاري في المدينـة . فإن خرجتُ من قصره سالماً اجتمَعْنا لاتّخاذ الُخطَواتِ المناسِبة ، وإلاّ فما عليكم إلاّ التَّخَفِّي ريثما تَنجلي الأمورُ وتصِلُكم أخباري .

« وَعَبثاً حاول تلاميذ « بيدبا » إقناعَه بالتخلّي عن ُخطَّته ، فقــد كانت مصلحة البلاد ، وحريَّة المواطِنين ، أثمن لديه من حياته .

« وفي اليوم التـالي وصل « بيدبا » وَصَحْبُه إلى المدينة . ذهب « بيدبا » وحــدَه إلى القصر ، وقال للحاجب :

— قلْ للملك إنّ « بيدبا » في الباب ، وهو يطلُب مقابلتَه .

« دخل الحاجب على الملك فأخبره بأمر « بيدبا » ، فأذِنَ له بالدخول . ولكنَّه ، في انتظار دخول الفيلسوف ، راح يتساءل ، مستغرباً ، عن سرّ زيارة الناسك له :

— تُرى ، ما الذي دعاه لزيارتي ؟ أَلِقَضاء حاجةٍ له ، أم لِرَدِّ ظلمٍ لَحِقَه ؟

« ولمّا سمع الملكُ الحاجبَ يُعلن عن دخول الناسك نظرَ ، فإذا به إزاء رجل قد لبسَ مُسُوحَ الحكماء والنُّسّاك ، تَلوح على قَسَماته أماراتُ الصَّراحة والذكاء والطِّيبة .

« سجد « بيدبا » للملك ، ثم استوى واقفاً ، فيما راح « دبشليم » يُنعِمُ فيه النظرَ . وزاد استغرابُ

الملك حين رأى الفيلسوفَ يقِف ساكتاً لا يُفوه بكلمة . وأخيراً ضاق « دبشليم » بسكوته ، ولكنَّه تمالكَ نفسَه ، وتكلَّفَ اللُّطْفَ ، وقال له :

— ما حاجتُك أيُّها الحكيم ؟ أَفْصِحْ ، وقل ما تشاء .

« ولمّا سمع « بيدبا » كلامَ الملك اطمأنّ قلبه ، وأجاب :

— مولاي ، جئت أتمنّى لجلالتكم حياة سعيدة وعُمراً طويلاً . ولقد شجَّعني كلامُكم ، وزادني جرأةً على قول الحقّ . إعلَمْ أيُّها الملكُ العظيمُ أنّ البلاد قد ضجَّت بظلمكم . وقد خرجتُ من عُزلتي فدخلت عليكم علّني أتوصَّلُ إلى عقلكم وقلبكم ، وعلَّكم تُصلحون من أمركم قبل فواتِ الأَوان .

— ماذا تقول أيُّها الوَقِح ؟ أذنتُ لك بالكلام ،

وشجّعتُك على القول ، فإذا بك تلذَعني بجارِح كلامك . ولكنّني سأجعلك عِـبرةً لأمثالك من المتجرِّئين . أيُّها الحرّاسُ ، خذوه واصلبوه .

« صاح « بيدبا » :

ـ أيُّها الملك العظيم بجَبْرُوتِهِ ! لقد قمتُ بواجب النُّصح والهِداية ، علّني أُنقِـذ بلادي وعرشك من الهلاك . ولكنّ ضجيج الشرّ يسدُّ أذنيك ، وضبابَ الجهلِ يُعمي عينيك . أيُّها الحرّاسُ ، هيّا بنا ، فإنّ من قام بواجبه لا يهابُ الموت ...!

« وما إن خرج الحرّاس « ببيدبا » حتى أرسل « دبشليم » يأمرُهم بحمله إلى السِّجن من غـير أن يُصلَب. ثم بثَّ جنوده يبحثون عن تلاميذه وأتباعه ، ولكنّهم لم يجدوا منهم أحداً .

*

« ... ومضت الأيّام والفيلسوفُ طريحُ السجنِ . إلى أن كانت ليلةٌ من الليالي سهِر فيها « دبشليم » ، وفارقه النُّعاس . فقام إلى شرفة غرفته يرْقُبُ الكونَ مِن حوله . شاهد النجوم تلمع في كَبِد السماء ، فغرق في سرّ تكوينها ، وحركاتها ، وبقائها ، وشعر بأنّـه ضعيف إزاء عَظَمَتها ، جاهلٌ إزاء خلودها ؛ وتساءل: تُرى ، من يعرف أسرارهـا ، ويشرح له أمورها ؟ وكمثل التماع البَرْق بين الغيوم ، هكذا التمعت صورة « بيدبا » في خاطر « دبشليم » ! في تلك الساعةِ من الليل ، والدنيا سُكونٌ وجَلال ، والكونُ حقيقةٌ وجمال ، أدركَ الملك عظمـةَ العِلم وقَدْرَ أصحابه ، وأدرك ، بخاصّة ، عظمةَ « بيدبا » . لقـد أراد الفيلسوف للبلاد السعادةَ ، وللعرش الدَّيمومةَ ، فما كان نصيبُه ؟

« إنتفض الملك لهذه الأفكار ألماً وندمـاً .

وللحال أَمر بإحضار « بيدبا » ، فأُدخِل بعد قليل .

فلمّا مَثُل بين يديه قال له « دبشليم » :

ــ أيُّها الفيلسوف الصالح ! لقد أسأت إليك وظلمتك، كما أسأتُ إلى بلادي وظلمتُ شعبي . وإنّني منذ اللحظة مكفِّرٌ عن كلِّ ذَنْبٍ أتيتُه . أنت ، منذ الساعة ، نَصيحي ووزيري ، فهلاّ قبلتَ وغفَرت ؟

ــ عفوكَ مولاي ! فأنا خادمُ جلالتك . وإنّ لي في خدمتكم ، وخدمةِ شعبي ، ما يُثلج صدري ، ويُسعد أيّامي .

« وفي اليوم التالي قلّد الملك « بيدبا » الوزارةَ ، فعَمّ الفرحُ البلاد ، وعادت إلى الشعب الثقةُ بالعرش . وما لبثت العدالةُ أنْ سادتْ ، والحرّيّةُ أن شاعت، فازدهرت العلومُ والآداب ، وتحسّنت التجارة

والصناعة والزراعة . واطمأنَّ الملوك المجاورون إلى سياسة « دبشليم » الجديدةِ ، فعقدوا معه معاهداتِ الصداقة .

« وأراد « دبشليم » أن يعوِّض ما فاته من معرفة ، فانصرف إلى خزائن أَجداده يُخرج منها ما حَوتْ من جواهر العلم ؛ فوجد أنّ لكلّ ملك منهم كتاباً خُصَّ به ، يشرح فيه كاتبُه فلسفةَ ذلك العَهد ، وعلمَه ، وتجاربه ، ونصائحه ، حتى يكونَ للآتِين من بعدِه عوناً وذُخراً . إذ ذاك أدرك « دبشليم » مدى ضعفه وجهله ، وأنّه لم يبلغ شيئاً ممّا بلغه أسلافُه في الفَضْل والقَدْر ، فعقد العَزْمَ على أن يسير في خُطى أجداده الصالحين .

« إستدعى « بيدبا » وقال له :

ــ لقد اخترتُك أيُّها الحكيم لتضعَ لي كتاباً

يفوق في حكمته وعلمه ولذته ما جاء قبله من كُتب أجدادي الصالحين .

ـ أمرُ مولاي مُطاع .

ـ خزائن كتبي ، وأموالي ، كلُّها في تصرُّفك ، فلا تَبخَلْ على عملك بشيء منها . ثم إنّي أُلحُّ في أن يتضمَّن الكتاب ، فضلاً عن العلم والحكمة ، لذَّةً ولهواً وترويحاً عن النَّفس ، فيُقبِلَ عليه مَن يقرأه بشوقٍ وارتياح . كم يَلزَمُك من الوقت لتضع لي هذا الكتاب ؟

ـ سنة تكفي يا مولاي ، شرطَ أن أكون فيها بعيداً عن الناس ومَشاغلِهم .

ـ إنّها لك أيُّها الحكيم . وليكن اللهُ في عونك .

★

« إختار « بيدبا » من تلاميذه شابّاً ذكيّاً مثقّفاً ليساعدَه في عمله ، وجَمع ما حوَت خزائنُ « الهند » من أدب وحكمة . ثم انصرف إلى العمل في دارةٍ جميلة أُعدَّت له خارجَ المدينة .

« قسم « بيدبا » الكتاب أربعةَ عشَرَ باباً ، وجعل الكلام فيه على ألسنة الحيوانات من أُسودٍ وذئاب وثعالبَ وأرانبَ وطيورٍ وغيرِها ؛ فأتى قصصاً مسلّية بسيطة في ظاهرها ولفظها ، ولكنّها ، في باطنها وغاياتها ، عميقةُ الحكمة ، واسعةُ العلم ، بعيدة التوجيه .

« ولمّا حلَّ الموعِد المعيَّن حمل « بيدبا » كتابه إلى الملك ، فأرسل « دبشليم » وفوده تدعو علماء البلاد ورجالاتِها وقوّادَها ليحضُروا قراءة الكتاب .

« وفي أحد الأيّام جلس الملك على عرشه ،

وعلى رأسه تاجُـه ، وفي يده صولجانه ؛ وجلس عن يمينه كبارُ مملكته ، وعن يساره علماؤها . وما إن دخل « بيدبا » حتى وقف له الجميع إجلالاً واحتراماً. أمّا الملك فقد أومأ إليه مبتسماً وأجلسه عن يمينه . ثم أشار إليـه بأن يبدأ بقراءة الكتاب الذي وضعه .

« دامت القراءة ساعـاتٍ طِوالاً خيَّم فيها السكون على الحاضرين ، وأخذتهـم فيها نشوةٌ من اللذَّة والسعادة لا توصَف . وفي ختام القراءة صاح « دبشليم » مبتهجاً :

ـــ عُوفيتَ أيُّها الحكيم ! إنّ هـذا الكتاب جوهرةُ جواهرِ العلمِ والفلسفـة والأدب ، ولم أسمع بأفضلَ منه حكمةً ، ولا بأعمَّ منه فائدة ، ولا بأعمقَ منه لذّةً . أطلُبْ ما تشاء ، فإنّ كتابك لا يُقدَّر بثمن !

ـــ لقد نِلتُ ثمن كتابي أيُّها المليكُ العظيم ! إنّ تقديرك له هو أغلى ثمـن أناله . ولكنَّني أسألُ مولاي أن يدوِّن كتابي هذا كما دوَّن آباؤه وأجداده كتبَهم ، وأن يأمر بالحرص عليه حرصَه على عرشه ؛ فأنا أخاف عليه من ملوك الفُرْس ، فإن هم علموا بوجوده ، وعرَفوا قدْرَه ، سعَوا للحصول عليه .

ـــ إنّ طلبـك واجب مقدّس . فليكن لك ما تشاء .

« ولمّا انتهى النُّسَّاخ من تدوين كتاب « كليلة ودمنة » ، وهو اسم الكتاب الذي كتبه « بيدبا » ، وُضع في خزائن « بيت الحكمة » ، أعظم مكتبات ملوك « الهنـد » قاطبةً . وكانت وصيَّـة « دبشليم » لأولاده وأحفاده أن لا يفارق الكتاب مكانَه أبداً . وعلى من يرغب في الاطِّلاع عليه من أهل الرأي

والشأن من ملوك « الهند » وفلاسفتها ، أن يقرأه في المكتبة .

« وهكذا بقي كتاب « كليـلة ودمنة » ، جوهرةُ الجواهر ، محفوظـاً في خزائن « بيت الحكمة » ، يذهب إليه الملوك والفلاسفة فيطالعونه وسط حراسة مشدَّدة .

★

ولمّا انتهى « بزرجمهر » من كلامه نظر « كسرى » إلى وليِّ عهده وقال :

ـ يا بنيَّ ، حُلمي وأقصى مُبتغاي أن أحصُل على « كليلة ودمنة » . إنّه أصل كلّ أدب ، ورأسُ كلِّ علم ، وأَساسُ كلِّ حُكم .

ثم التفت إلى « بزرجمهر » وقال :

ـ قُمْ يا « بزرجمهر » وابحثْ عن رجل عاقل ، وأديبٍ عالم ، وفيلسوف صـابر ، يُتقنُ الفارسيَّة والهنديَّة ... واحْمِله إليَّ .

واختار « بزرجمهر » ، بعد طُول بحثٍ وتدقيق ، طبيباً شابّاً من عائلة عريقة يدعى « بَرْزَوَيه » ، فأحضره إلى « كسرى » . وما إن رآه الملك حتى لمح فيـه الذكاءَ والرصانة ، فقال له :

ـ يا « برزويه » ، لقد اخترناك لِمهمَّة صعبةِ المَنال ، تتطلَّب العقل والعلم والصبر واليقظة . فهـل أنت أهْل لها ؟

ـ مولاي ، إنّ حياتي وعلمي في سبيل مليكي وبلادي .

ـ بلَغَني أنّ كتاباً هنديّاً ، يُدعى « كليلة ودمنة » ، محفوظٌ في خزائن ملوك « الهنـد » . ومهمَّتك هي

الحصول على هذا الكتاب مهما كلَّفك الأمر من جُهْد وسهر ومال وتضحية. عليك بالاطّلاع على الكتاب في « بيت الحكمة »، ونقلِ محتَوَياته إلينا.

ـ سَمْعاً وطاعة يا مولاي!

وجمع « كسرى » علماء الفلك وطلب منهم أن يراجعوا النجومَ عن اليوم والساعة المناسبين لبدء المهمَّة. وفي الوقت الذي عيَّنه المنجِّمون غادر « برزويه » بلاده متخفيّاً في ثياب النُّسَّاك، وسار إلى بلاد « الهند » طلباً لكتاب « كليلة ودمنة ».

٣

ولمّا دخل « برزويه » عاصمة بلاد « الهند » راح يختلط بأفراد الشعب على اختلاف طَبَقاتهم، فعاشرَ

منهم الأغنياء والفقراء، والمتعلِّمين والجَهَلة، واطَّلع على دَخائلهم وأعمالهم ووظائفهم. وقد كانت له من اختلاطه بهؤلاء الناسِ غايةٌ، وهي التوصُّلُ إلى الكتاب عن طريق أحد الهنود، من غير أن ينكشفَ أمرُه ويَفتضحَ سرُّه.

وبعد طُولِ بحثٍ وقع اختيار « برزويه » على شابٍّ هنديّ يدعى « أَدُويَه »، لأنّ « أدويه » كان خازنَ كُتُب الملك، وبيده مَفاتيحُ خزائن « بيت الحكمة ». وتعلَّق « أدويه » « ببرزويه »، جذَبه إليه دَماثةُ أخلاقه، وسَعةُ اطّلاعه. وأصبح الشابّان لا يفترقان.

ولكنّ « برزويه » ما لبِث أن شعر بالندَم والخَجلِ، فحار في أمره: إنّ صديقه الهنديّ يحبُّه محبَّةً خالصة، فكيف يخدعه ويُخفي عنه

حقيقةَ أمره والغايةَ من مُصادقته؟ أيُطلِعه على قصّته فيريحَ ضميرَه؟ أم يُبقي على سرّه حتى لا يُضيِّعَ عليه المهمّةَ التي جاء من أجلها؟

وفيما كانت الأفكار تتصارع يوماً في رأسه، دخل عليه «أدويه» فسلّم عليه بلهفة وشوق، وقال له:

ـ ما لي أراك حزيناً كئيباً أيُّها الصديق؟

وكأنّ «برزويه» كان ينتظر مثلَ هذا السؤال حتى يعترفَ بما يُثقِلُ صدرَه، فأجاب على الفور:

ـ يا «أدويه»، لقد كنتَ لي في غُربتي خيرَ صديق وأخٍ ورفيق. وأنا اليومَ أتعذّبُ وأشقى لأنّني أُخفي عنك حقيقةَ أمري. وإنّ سرّي ليعذّبني ويُخجِلني في آنٍ معاً. فكيف أكون صديقَك وأنا أكتم عنك هُويّتي وحقيقةَ مهمّتي؟

قال «أدويه» وهو يبتسم:

ـ لا عليكَ أيُّها الصديق، لا تعذّبْ نفسَك، فإنّي عارفٌ بأمرك منذ البداية. أنت رسولُ ملك «الفرُس»، قدِمْتَ بلادَنا لتَسلُبَنا كتابَ «كليلة ودمنة» وترجِعَ به إلى ملكك. كانت صداقتك لي مُخادَعةً. ولكنّني، مع ذلك، تعلّقتُ بك، وأَنِستُ بصُحبتك، وسعَيت إلى إسعادك، لأنّي اكتشفتُ حقيقة قلبك، فعرفت فيك عقلاً نيِّراً، وأدباً عميقاً، ونفْساً طاهرة. هذه الخِصالُ كلُّها ربطت بيني وبينك، ولا سبيلَ للتفريق بيننا. ولكنّ الحاجةَ التي تسعى إليها صَعبةُ التحقيق، مَحفوفةٌ بالمَخاطر.

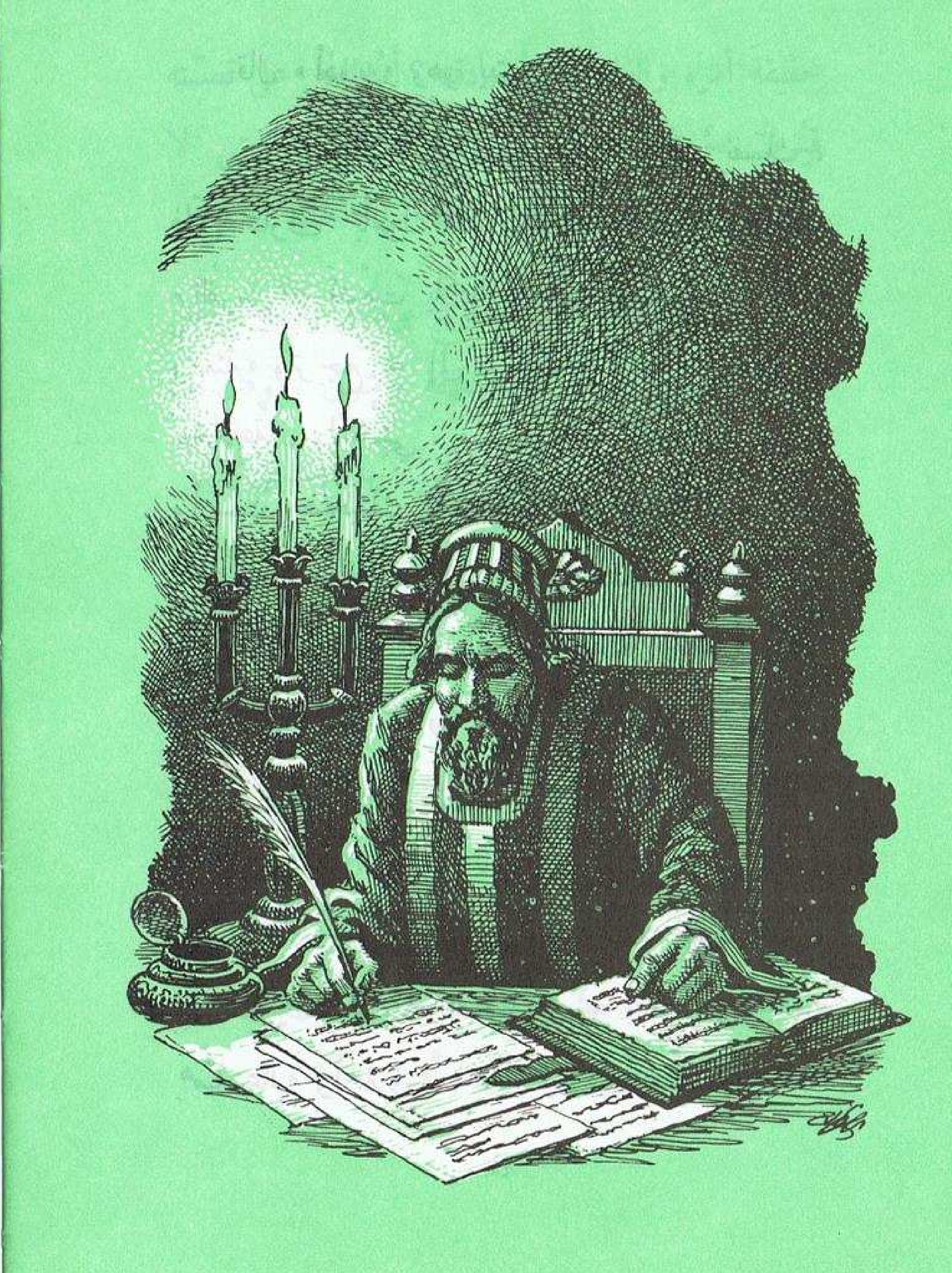
إزدادت حيرة «برزويه»، وزاده ضميرُه تأنيباً، حين عَرَف تمامَ المعرفةِ ما يتمتّع به «أدويه» من هِمّة عالية وأخلاقٍ سامية. ولكنّه خفّف عن نفسه

اللَّومَ لمّا رأى صديقه غافراً ، متسامحاً ، باقياً على حبِّه وصداقته . وقد تَشجَّع «برزويه» ، فراح يشرح لصديقه مهمَّته الرسميَّة بالتَّفصيل ، وكيف أنَّه وعد «كسرى» بتحقيق مَطْلَبه . ولمّا رآه «أدويه» خائفاً من الإخفاق ، يائساً من تحقيق المُراد ، قال له :

ـ سأساعدك يا صديقي في تنفيذ مهمّتك . ولكنَّني أطالبك بالكِتْمان الشديد ، لأنَّ ما أقوم به يُعتَبر خيانةً لوظيفتي وللبلاد . أمّا أنا فأرى غيرَ هذا الرأي : إنّي أؤمن بأنّ العلم واحدٌ ، وهو بالتالي مُشاعٌ بين البشر ، لا يعرِف حدوداً ، ولا يُحصَر في خزائن . سأُدخلك خزائنَ الملك تنقُل منها ما تشاء .

صاح «برزويه» وقد أخذته نشوة السعادة :

ـ هدفي الأوّل والأخير هو كتاب «كليلة ودمنة» ،



جوهرةُ الجواهر كما يدعوه مولاي « كسرى » !

★

دخل « برزويه » مكتبة الملك يرافقه « أدويه » ، فباشر للحال نَسْخَ كتاب « كليلة ودمنة » ووَضْعَ الشروح لمعانيه ومَغازيه .

وأقام على عمله هذا أيّاماً بلياليها ، فضعُف جسمه ، وضاق صدره . ولكنَّ خوفه من اكتشاف أمره ، وضَياعِ الفرصة ، حثَّه على الاستمرار في العمل . ولمّا انتهى من نسخ « كليلة ودمنة » انتقل إلى غيره من الكتب النفيسة فنسخ بعضها .

وكان في تلك الأثناء قد أرسل إلى « كسرى » يُعلِمه بنجاح الخُطَّة ، فبلغ سرور الملك بالنبأ مَبْلَغاً لا يوصَف . ولكنَّه خاف على « برزويه » إن هو أطال البقاءَ في « الهند » ، فأرسل إليه يَستعجله

بالعودة ، ويوصيه بسلوك طريق غيرِ الطريقِ التي ذهب فيها .

وهكذا كان . وودَّع « برزويه » صديقه « أدويه » ، فكان وَداعاً مؤثِّراً بكى له الصديقان .

٤

وصل « برزويه » إلى بلاد « فارس » فاستقبله مليكها استقبالَ الأبطال والفاتحين . ثم طلب منه أن يرتاح سبعةَ أيّام ويعودَ إليه في اليوم الثامن .

وفي اليوم الثامن جلس « كسرى » على عرشه وحولَه الأمراءُ والقوّاد والأعيان والأدباء والعلماء . ودخل « برزويه » يحمل نُسخة من كتاب « كليلة ودمنة » ، ونُسَخاً أخرى من بعض كتب « الهند » الثمينة ، فقدّمها إلى الملك . ثم أمر الملك أن تُفتَح

« لبرزويه» خزائنُ المملكة ، وأقسم عليه أن يختار منها ما يشاء . وحار « برزويه» في أمره ، ولم يكن يشتهي شيئاً من المال أو الجواهر . ولكنَّه اختار من الخزائن ثوباً موشَّحاً بالذهب ، وشكر للملك إنعامَه وفضله .

صاح به الملك متعجِّباً :

ـ أهذا كلُّ ما تَرغب فيه أيُّها الصَّديق ؟ عملك عظيم ، وجزاؤك كبير ، فلو طلبتَ منّي نِصفَ مملكتي لمَا رفضت طلبك .

ـ أيُّها الملك العظيم ! لقد نِلت مكافأتي بنَسخ هذا الكتاب القيِّم ، وحِفظِ معانيه ، واستيعابِ حِكَمه ، وبحَمْله هديَّةً قيِّمة إلى مَليكي وبلادي . ولكنّ لي طلباً ، لو حقَّقه سيِّدي ، لكنت من أسعد المخلوقات .

ـ أطلُبْ أيُّها العالِم ، فإنّي أُحقِّق لك ما تريد .

ـ مولاي ! كتابُ « كليلة ودمنة » أربعةَ عشرَ باباً أو فصلاً . فليَسمح مولاي بأن يُضاف إليها بابٌ فيه سِيرةُ حياتي وأعمالي ليحيا به ذِكري .

صاح الملك :

ـ يا « بزرجمهر » ! سمعتَ ما قال « برزويه » . نفِّذْ رغبته في الحال ، وأَضِف سيرته إلى كتاب « كليلة ودمنة » . لقد طَمَح « برزويه » إلى الخلود ، وسيخلُد ذكرُهُ بخلود « جوهرة الجواهر » .

*

وصدَق كلام « كسرى » . فإنّ كتاب « كليلة ودمنة » هو اليوم من أعظمِ كتب الأمم . نقله العرب إلى لغتهم ، وأضافوا إليه من علمهم وفلسفتهم ، فعاش في تراثهم الأدبيّ ، ونقله عنهم الأدباء في شرقٍ وغرب .

عاش الملك

... أيّامٌ وأيّـام مضتْ ، و « جلال» هائمٌ على وَجْهه ، يَقطعُ السُّهولَ ، ويَنزلُ الأودية ، ويُصعِّد في الجبال . تعِبتْ رِجْلاه من طُول المَسيرِ ، فراح يَجُرُّ قدَميه على الأرض جرّاً ، وهو يَتهادى في مَشْيه كأنَّه السَّكْرانُ ، أو كأنَّ الشَّمسَ الحادَّةَ قد لَفَحت دِماغه ، فصار يتحرَّكُ من غَيرِ وَعْيٍ منه أو تَفكير .

إشتدَّ عليـــه التَّعبُ ، فتوقَّف . أجالَ عينيه الذابلتَين في ما حولَه ، فلم يرَ إلاّ سماءً واسعة ،

وأرضاً شاسِعة ، وطريقاً لا ينتهي . ولمحَ في البَعيد شجرةً كبيرة ، فاستَجمعَ ما بقيَ له من قوّةٍ ، وأسرعَ إليها .

وصل إلى الشَّجرة لاهِثاً متهدّماً ، فارتمى في ظِلّها بلا حَراك . ظلَّ على هذه الحالِ من الإعياء والجُمودِ دقائقَ طويلةً . ولولا صدرُه ، الذي كان يَضطرِب بدقّات قلبه القويّةِ السريعةِ ، لخِلْتَه فاقِدَ الرُّوح .

ثم فتح عينَيه ، وإذا هذه الأفكارُ تُعاوِدُه وتَشتدُّ عليه : « إلى أينَ أذهبُ ؟ وأينَ ليَ المالُ أَسْتعينُ به على الحياة ؟ وأينَ ليَ الرَّفيقُ أُسلّي به نفسي في غُربتي وشَقائي ؟ » ولكنه لم يفكّر طويلاً ، لأنَّ النُّعاسَ كان يُخدِّرُ حواسَّه ، ويُطبِقُ جَفنَيه ، فغاب في سُباتٍ عَميقٍ طويل.

★

فجأةً أفاق على أصوات ! لم يَتبيَّنْ بادىءَ الأمرِ نوعَها ومَصدرَها ، فخاف . وما لبِثَ أنْ رأى ثلاثةَ شُبّان في طريقهم إلى حيثُ كان ، وهم يتجاذبون الحديثَ وكأنّهم في جِدالٍ . خَشِيَ أن يكونوا من اللُّصوص ، وأن يُريدوا به شرّاً ، فحاولَ أن يَنهض من مَوضِعه لعلَّه يَجدُ لنفسه مَخْبأً . ولكنَّ الشُّبّان الثلاثةَ كانوا قد شاهدُوه ، فوجّهوا إليه خُطاهم ، فلم يبقَ له إلاّ أن ينتظرَ ليَقفَ على حقيقتهم .

تقدَّموا منه وسلَّموا عليه ، فزال ، للحال ، اضطرابُه ، وفارقَه الخوفُ . وكانت وجوهُهم طيّبةً ، وابتساماتُهم مُخلصةً . ثم قعَدوا جميعاً إلى جانبه . وبعد ما استقرُّوا بالمكان سألهم « جلال » :

— من أنتم ؟ وإلى أين أنتم ذاهبون ؟

قال له الأوَّل :

— أنا فلاّحٌ وابنُ فلاّحٍ . أبي رجلٌ طيِّبٌ بسيط ، وهو ربُّ عائلةٍ كبيرة . وقد مَلَلْتُ فقري ، وضَجِرت من بلادي ، فخرجتُ أبحثُ عن عالَمٍ أكتشفُ فيه الجديدَ والمجهول .

وقال الثاني :

— أنا تاجرٌ وابنُ تاجر . أَصبتُ في تجارتي رِبْحاً ، وجمعتُ أموالاً طائلة . ولكنَّ الأحوالَ تغيَّرت ، فخسِرتُ كلَّ ما كنت أَملك . واليومَ تَراني مُفلِساً ، شَريداً ، حائراً .

وقال الثالثُ :

— أنا شريفٌ وابنُ شريف . نشأتُ في أحضان العزِّ والجاه ، فلم أُبالِ يوماً بمسؤوليَّة أو عملٍ . رُحتُ أُنفِقُ المالَ بلا حِساب ، فوَعظني والدي ، ونَهاني عن فِعلي ؛ ولكنَّني لم أَستجِب لنَصائحه ، فطردني .

وها أنا اليومَ أَطوفُ في البلاد ، لا مَأوى ، ولا أهل .

ولمّا انتهى الشبّان من أقوالهم كان «جلال» قد اطمأنَّ إليهم غايةَ الاطمئنان ، فعادت إلى نفسه الراحةُ ، وعاد إلى قلبه شيءٌ من الأَمل . أطرقَ بُرهةً ، ثم تنهَّد وقال :

— أمّا أنا فملِكٌ وابن ملك . لا تَعجَبوا يا سادةُ من كلامي ، فالأَيّامُ تنقلبُ بالملوك كما تنقلب بغيرهم من عِباد الله .

«مات أبي عن عُمرٍ قضاه في الخير والصّلاح ، فانتقل عرشُه إليَّ . ولمّا كنتُ قد دُرِّبتُ ، منذ صِغري ، على روح السياسة الرشيدة والحُكمِ العادل ، فقد تولَّيتُ مَنصِبي بكلِّ عَزْمٍ وإرادة ، وأخذتُ ، منذ اللَّحظةِ الأُولى ، أعالجُ قضايا الناس

بالأَمانة والإِخْلاص .

« ولكنَّ لي أخاً سيِّئَ الأَخلاقِ ، شَرِسَ الطِّباع ، راح يُناصِبني العِداء . وعبثاً حاولتُ أن أَستميلَه ، عبثاً حاولت أن أُقنعه بأنّ عرشي عرشُه ، وحكمي حكمُه ، وبأنّ الأُخُوّة التي تشُدُّ الواحدَ منّا إلى الآخر أقوى من كلِّ مَصلحة أو مَطْمع ؛ فقد مضى في ضَلاله ، مستغلاًّ حُبّي وعَطفي ، وجمع حوله زُمَراً من الأشرار والمُرْتزِقة ...

« إلى أن كان يومٌ أطلق فيه أخي رجالَه يُعمِلون القتلَ والسَّلْب في المدينة . وتمكّنت فئة منهم ، كان هو على رأسها ، من اقتحام قصري والقضاء على حرَسي . ولو لم أُسارع إلى الهرب لكنتُ الآنَ بين الضَّحايا البريئةِ التي قضى عليها أخي ... »

ولمّا انتهى « جلال » من كلامه حدَّق إلى كلٍّ من الشُّبّان الثَّلاثة ، ثم تابعَ يقول :

ـــ وها أَنا اليومَ مثلَكم هائمٌ شريد ، ومثلَكم لا أَعرف لي وُجْهةً ولا غاية .

وللحالِ صاح الشُّبّانُ الثلاثة صيحةَ رجلٍ واحد :

ـــ لا ، لستَ بعد اليوم هائماً شريداً ، لست بعد اليوم وحيداً . فنحن كلُّنا ، منذ الساعةِ ، رُفقاءُ طريقٍ ، ورفقاء غاية ، ورفقاء عُمر .

وهَبَّ « جلال » يضُمُّ الشبّانَ الثلاثة إلى صدره ، والدموعُ تترقرق في عينَيه .

*

كان الطريقُ طويلاً ، شاقّاً . ولكنَّ الرُّفقاءَ الثلاثة لم يَشعُروا بالساعات تمُرُّ ، ولا بالمسالك

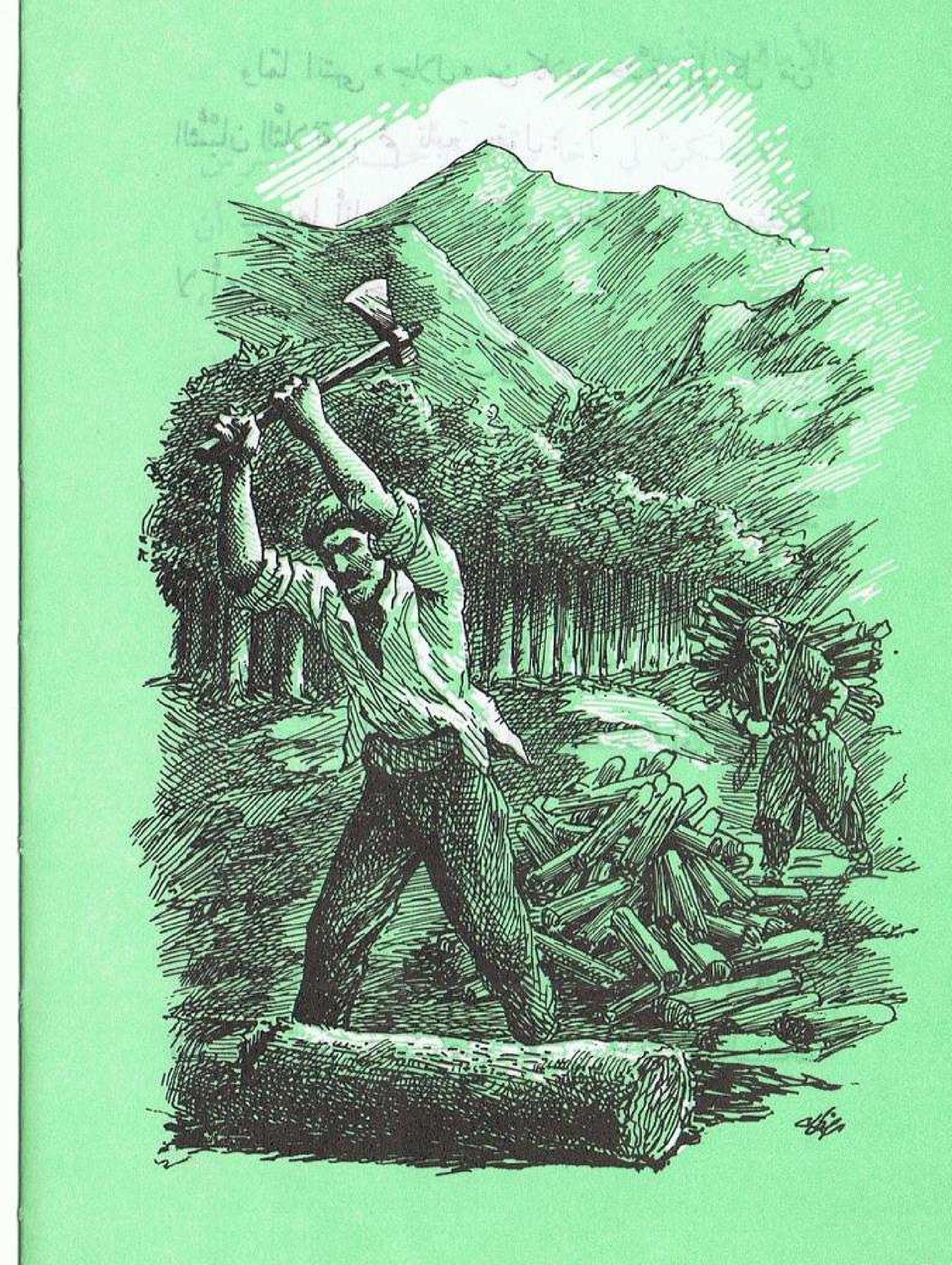
الوَعْرة تأكلُ من أقدامهم . كانت المحبَّة تبعث فيهم قوَّةً تتجدَّدُ ، وعزماً يتأكَّد ، وتَطيرُ بهم على أجنحتها من أرض إلى أرض . وزادَ في تقارُبهم وتآلُفهم أنَّهم كانوا يتبادلون الآراء الصريحة ، ويتدارسون الخُطط الواضحة .

قال ابن الفلاّح :

ــ في رأيي أنّ سبب النَّجاح في الحياة هو الاجتهادُ. فلا بُدَّ للمرء ، مهما قَسَتْ عليه الأيَّامُ ، من أن يحقِّق بالعمل الدائب أهدافَه ، وينالَ بالجِدِّ المثابِر مُبتغاه .

واعترض ابنُ التاجر قائلاً :

ــ لا نَفْعَ في الاجتهاد وحدَه ما لم يرافقه عقلٌ يُخطِّط ويدبِّر . ألاجتهادُ ، من غير عقلٍ ، وقتٌ ضائع ، وأملٌ زائل .



وتدخَّلَ ابن الشريف يقول :

ـ كلاكُما مخطئان يا صاحبيَّ . فلا العقلُ يُجدي ، ولا الاجتهادُ يُنيلُ الإنسانَ ما يسعى إليه . ألجمالُ ـ الجمالُ وحدَه ـ قادرٌ على إصلاح الأَحوال ، وهو الذي سيُنقذنا ممَّا نحن فيه من أزْمة .

كان « جلال » يُصغي إلى هذه الآراء وهو لا يفوه بكلمة . لقد خَبِرَ شؤون الحياة وشجونَها ، وعرَف منقلَبات أيّامها ، فبات لا يتأثّر بسرعةٍ بما يرى أو يسمع .

نظر إليه رفقاؤه وكأنّهم ينتظرون سَماعَ رأيه . ولكنَّه لم يقلْ شيئاً . عند ذلك سألوه :

ـ وأنت يا « جلال » ، ماذا تقول ؟

أطرقَ «جلال» قليلاً ، ثم قال :

ـ إنَّ أمور الدُّنيا عجيبة تحيِّرُ العقول .

لا الاجتهاد ينفع فيها ، ولا العقل ، ولا الجمال . علَّمتني تجاربي أن أؤمن بالقَضاء والقَدَر ، وبأنّ مشيئة اللهِ هي التي تُديرُ الحياةَ وتدبِّرُ أحوالها .

★

وصل الرُّفقاء الأربعة إلى تَلَّة مُشرِفة . نظرُوا إلى السَّهل الأخضرِ المنبسط عند أقدامها ، فرأوا في وسطه مدينةً كبيرة قد انتشرتْ بيوتُها بين الحدائقَ الغَنَّاء والأَحْراجِ المُلْتفَّة . هنا أدركوا جميعاً أنّهم قد أقبلوا في حياتهم على مرحلة جديدة ، يَحِلُّ فيها العملُ مَحلَّ الكلام . تكلَّموا في الماضي كثيراً ، وتجادلوا كثيراً ، وأدلى كلٌّ منهم برأيه . ولكنَّ الكلامَ لا يَسُدُّ جوعاً ، ولا يُنظِّمُ مستقبلاً . وها هم الآنَ أمام مدينةٍ جديدةٍ ، غريبةٍ ، فماذا عساهم يفعلون ؟

كان ابن الفلاّح أسبقَهم إلى الحَل . قال :

— ها قد مرّ على وجودنا معاً وقتٌ طويل ، ونحن ما زِلنا ندور وندور . وأرى أنّ هذه المدينةَ التي ظهرت أمامَنا هي المِفتاحُ إلى حياتنا المُقبِلة . سأدخلُها منذ الساعةِ ، وسوف أبحثُ فيها عن عمل أكسِبُ به بعضَ المال . إنتظِروني حيث نحن الآن .

ثم سار حتى دخل المدينة . راح يَعرِضُ على تُجّارها وصُنّاعها أن يعمَلَ لديهم لِقاءَ أجْرٍ زهيد ، ولكنّه لم يجد عملاً . وأخيراً صادفَ حطّاباً في أحد الأحراج ، فسأله :

— هل لي أن أعمل معك ، علّني أكسب قُوتي وقُوتَ ثلاثةٍ من أصحابي ؟

أجابه الحطّاب :

— هذه فأسي ، خذها . إقطعْ بها الحطَبَ ،

واحمِلْه إلى المدينة . فسوف تبيعه هناك بنصف دِرْهَم .

وبعد ساعات من العمل الشاقّ تجمّعَ لدى ابنِ الفَلاّح حِمْلٌ من الحطب ، فنقله إلى المدينة حيث باعه بنصف درهم . ثم اشترى بالمال طعاماً له ولأصحابه . وكتب على باب المدينة : « اجتهاد يوم واحد ثمنُه نصفُ درهم » .

ولحِقَ بأصحابه ، فجلسوا كلّهم يتقاسمون الطعام مسرورين ، شاكرين .

ولمّا كان صباحُ اليوم التالي قال « جلال » لابن الشّريف :

— هيّا يا صاحبي ! قُمْ إلى المدينة واستعملْ جَمالَك ، فلعلّك تَحمل به إلينا الطعامَ كما فعل صاحبُنا بالأمس .

نهض ابن الشريف إلى المدينة ، وراح يطوف في أرجائها حائراً ، لا يدري إلى أينَ يذهبُ ، ولا يدري ماذا يفعل . وكان يقول في نفسه : « من أين آتي بالمال وأنا لا أُحسن من الأعمال شيئاً ؟ من الجَمال ؟ لقد ذكرتُ أهمّيَّةَ الجَمال أمام أصحابي لأنّني لا أملكُ شيئاً غيرَه ! أردتُ أن أسترُ أمامهم عجزي ، فقلتُ ما قلت ! لقد كان والدي مُصيباً يومَ طردني ! ما العملُ يا الله ؟ لا يُمكنني أن أعود إلى أصحابي خاليَ اليدَين ! »

وقف في ظلٍّ شجرة وأسند ظهرَه إلى جذْعها . وفيما هو مستغرقٌ في التفكير تقدَّمَ منه رجل وسلَّم عليه ، فنظر إليه ابنُ الشريف مستغرباً . قال الغريب :

— لا عليكَ يا صاحبي ! أنت شابٌّ جميلُ الطَّلْعة ،

حسَنُ الوجه ، وأنا رسَّامٌ أرسُم الجَمال حيث أجده . فهل ترضى بأن أرسُم لك صورةً تكون نَموذجاً للجَمال والشبابِ في هذه المدينة ؟

لم يصدّق الشابُّ ما سمِع ، ولم يعرف ماذا يقول . ولكنَّه أشار إلى الرَّسام بالموافقة . فسار الرَّسام إلى بيته ، وتبعه الشابُّ . وفي البيت اغتسَل ابنُ الشريف ، وخَلَع عليه الرَّسامُ ثياباً نظيفةً فلبسها . ثم أجلسَه الرَّسامُ على مَنَصَّةٍ وأخذ يرسُمه . ولمّا انتهى من عمله نَقَدَه خمسينَ مئةِ درهم !

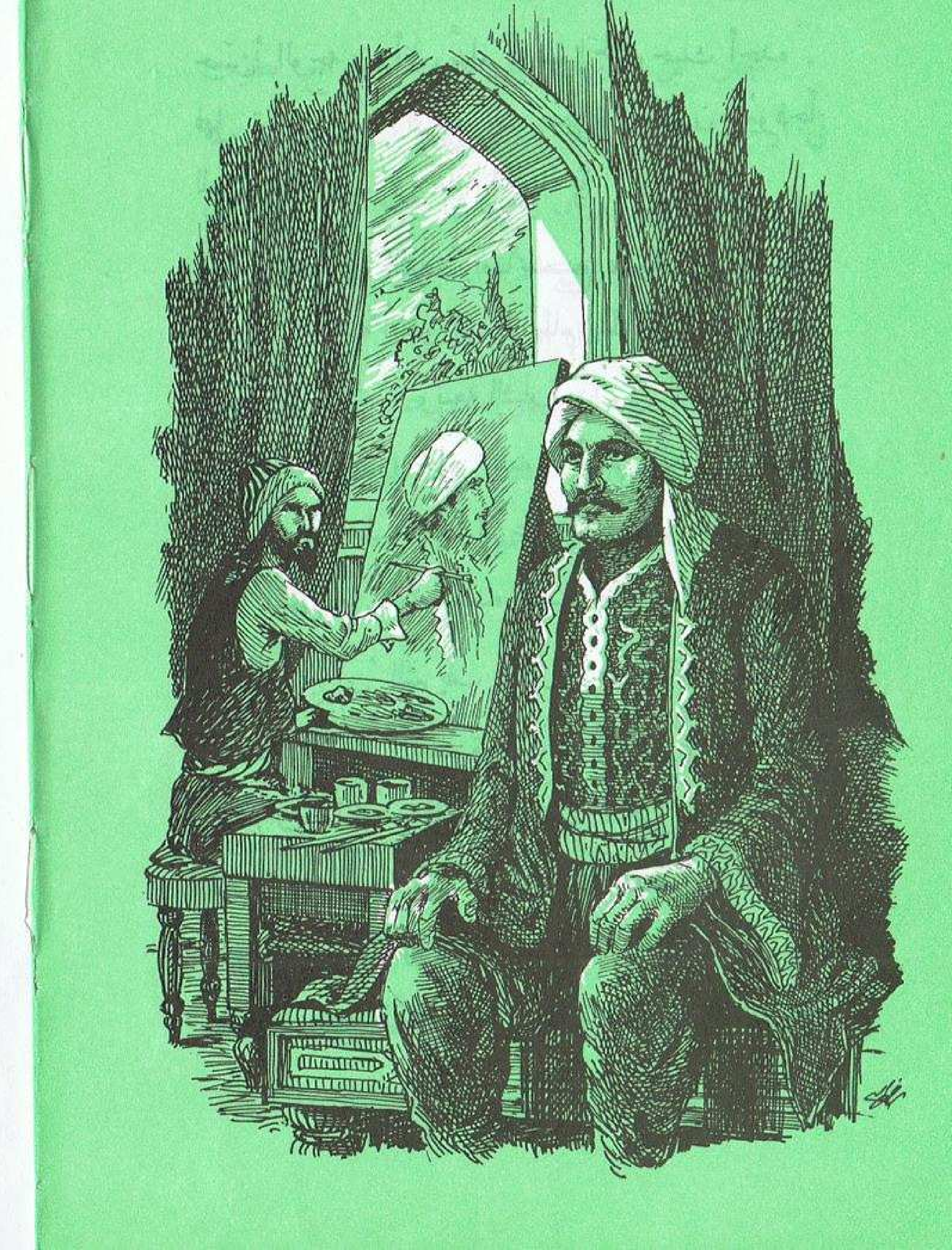
خرج ابنُ الشريف بالمال وهو يكادَ يطيرُ من السعادة . توجَّهَ إلى سوق المدينة ، فاشترى من الطَّعام والشَّراب ما لذَّ وطاب ، واشترى لكلٍّ من أصدقائه الثلاثةِ ما يَلزَمُه من الثِّياب والأحذية . ثم عاد مُسرعاً إلى مكان اللّقاء ، بعد ما كتبَ على باب المدينة ، تحت الكلام الذي كتبَه صديقُه ابن الفلاّح :

«جمال يومٍ واحد ثمنُه خمسُ مئة درهم».

أكل الرُّفقاء الأَربعةُ وشربوا، ثم استَحَمُّوا في جَدْول قريب. وما زالوا على هذه الحالِ من المرَح والسَّلْوى حتى نَفِدَ طعامُهم، فقال «جلال» لابن التاجر:

ــ ألآنَ جاء دَورُ العقــل والتَّصميم. قُم يا صاحبي واكسِبْ لنا بعملك وتجارتك شيئاً من الطعام.

سار ابن التاجر إلى المدينة، وقام إلى الوَسَط التجاريِّ فيها. وقد حيَّرَه أنْ رأى التجّارَ يترُكون مَتاجرَهم ويُسرعون ناحيةَ البحر. سار خلفَهم حتى وصلوا إلى الشاطىء، فأبصر سفينةً عظيمة قد ألقت مَراسِيها في الميناء. صعِد التجّار إلى السفينة، وصعد هو معهم، فسمعهم يُساوِمون أصحابها بالبضاعة التي تحملها ويفاوضونهم في شِرائها. ولكنَّ التجّــار عادوا من حيثُ أَتوا من غير أن يشترُوا شيئاً،



مدّعين أمام أَصحاب السفينة أنّ البضاعة غاليةُ الثمن .

لِحقَ ابنُ التاجر بجماعـــة التجّار ، فسمعهم يقولون في ما بينهم :

ــ لننصرِف الآن من غير أن نبتاع شيئاً . وبعد أيّام ، حين تَكسُدُ البضاعةُ ، يُضطرَّ أصحابها إلى بيعها بأبخسِ الأَثمان ، فنشتريها ، ونُصيب فيها أرباحاً طائلة .

ولمّا انصرف التجّارُ إلى أعمالهم عاد ابنُ التاجر إلى السفينة ، فاشترى البضاعة من أصحابها بمئة ألفِ دينار ، شرطَ أن يدفع المبلغ كاملاً في اليوم التالي عند تسلمِه البضاعةَ . وذاعَ الخبرُ في المدينة ، وعرَف تجّارها بالصّفقة ، وكانوا في أَمَسِّ الحاجةِ إلى البضاعة . فذهبوا إلى ابن التاجر وتباحثوا معه في شأنها ، وتمّ بينهم الاتّفاقُ على أن يشتروا منه البضاعة بمئة ألفِ دينار ومئة ألف دِرْهَم . فقبض الشابُّ المالَ نقداً ،

وتوجه مع التجّار إلى السفينة . دفع لأصحاب السفينة مئة ألف دينار ، وسلّم البضاعة إلى التجّار ، واحتفظ لنفسه بمبلغ مئة ألف درهم رِبْحاً صافياً .

قفَلَ ابن التاجر عائداً إلى أصحابه ، وقد كتب على باب المدينة تحت كتـــابة صديقيه : « عقلُ يوم واحد ثمنُه مئةُ ألف درهم » .

عاش الأصدقاء الأربعة ، بالمال الذي اكتسبه ابن التاجر ، أشهُراً طِوالاً . ولمّا تبخّر المـــالُ من أيديهم قال ابن الفلاّح وابن الشريف وابن التـــاجر « لجلال » :

ــ يا « جلال » ، إنّ دَورك قـد أتى . أنت لا تؤمن بالاجتهاد ، ولا بالجمال ، ولا بالعقل . فقُم إلى العمل ، واكسب لنا شيئاً بما تؤمن به من القضـــاء والقدَر .

*

لقد دقّت ساعةُ الامتحان ! نجـح الأصدقاء الثلاثة في ما قالوا وفعلوا ، فجمعوا بالاجتهاد والجمال والعقل مالاً . وقد بات على « جلال » الآن أن يسعى كما سعَوا ، ويَنجحَ كما نجحوا . ولكنْ كيف ؟ هو ملك وابن ملك ، تعوّد الحـكم والإدارة والسياسة ، ولكنَّه ما تعوَّد يوماً أن يعمل لتحصيلِ لُقمةِ العيش . فمن أين يبدأ ؟

تصارعت في رأسه الأفكارُ ، واختلطت في طريقه المَشاهدُ . وما درَى بوصوله إلى المدينة إلاّ حين وَجد نفسه فجأةً وسْطَ زِحامٍ وضَجَّة . ثم سمع بُكاءً ونُواحاً ، فوقف بباب دُكّانٍ يسأل المارّين في الشارع عن الأمر . عَلِم من أحاديثهم أنّ ملك تلك المدينة مات ، وليس له ولدٌ يَخلفه ، ولا أخٌ ، ولا أحدٌ من ذوي قُرْباه .

وبعد قليلٍ اشتدّ الزحام ، وعلت الضَّجَّة ،

وأصبحت أصوات النائحين تَشُقُّ السماء . وما هي إلاّ ثوانٍ حتى ظهرت في طَرَف الشارع جِنازةُ الملك ، والجماهيرُ تتدافعُ من حَولهـا . وخرج صاحب الدُّكّان إلى الطريـق ، فوجد « جلال » واقفاً كالمَصعوق ، لا يتحرّك ولا يُشارك الناس حزنهم ونواحهم . فقال له :

— من أنت يا هذا ، وما يُقعدك بباب دكّاني؟ ثم ما بالُك لا تحزنُ ؟ أَلسْتَ ترى أهلَ المدينة وقد فجعوا بموت مليكِنا العظيم ؟ هيّا ، اذهبْ من هذا المكان !..

لم يُجب « جلال » ، فقد كان له من همومه الخاصّة ، وهمومِ أصدقائه ، ما يُغنيه عن هموم المدينة وأهلها .

وانطلق صاحب الدكّان يشارك في جنازة الملك ، فسار في المَوكِب يبكي مع الباكين ، وينوح

مع النائحين . ولمّا عاد إلى دكّانه وجد « جلال » في المكان الذي غادره فيه ، وكأنّه قد سُمِّر فيه تَسميراً . ثارت ثائرةُ الوجل ، فأمسك « بجلال » وهَزّه هَزّاً قويّاً ، وقال له :

— ألم أمنعْك من الوقوف هنا ؟ مَن أنت ؟ لا بُدَّ أنّك جاسوسٌ من الأعداء أتى إلى هذه المدينة ليفرح بشقائها !

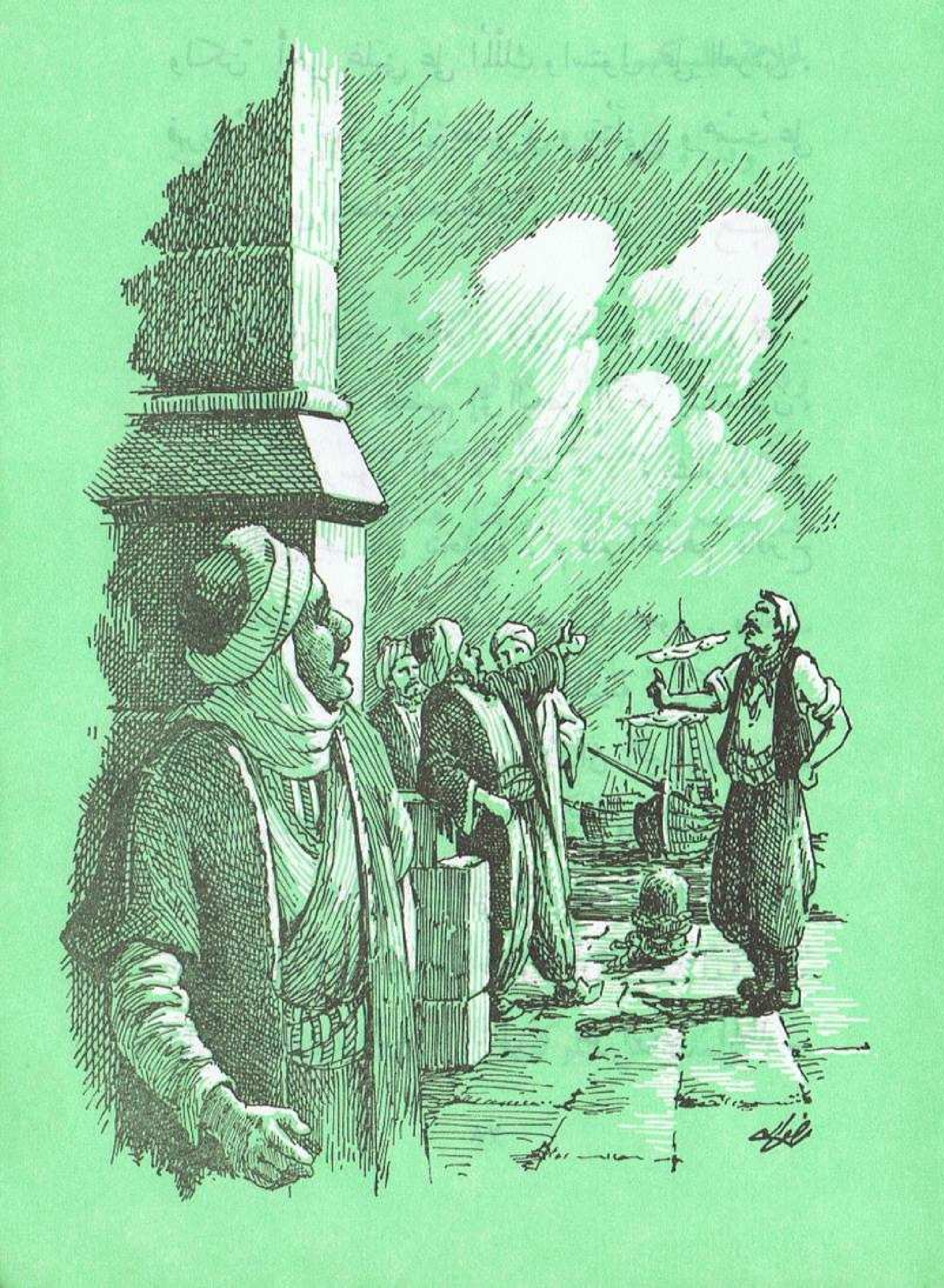
ثم ساق « جلال » إلى دائرة الشرطة ، وأصرّ على اتّهامه ، فوضعوه في السجن .

★

بقي « جلال » في سجنه أيّاماً لم يكترث خلالَها لما جرى له . لم يكترث لأنّه كان ، في الواقع ، مُرتاحَ الضمير مطمئِنّاً : فإنّ سجنه هذا يخلّصه من عَناء السّعي في سبيل كَسْبِ المالِ له ولأصحابه ،

ولا بدّ لهم من أن يَعلموا بحاله فيعذِروه .

في تلك الأثناء اجتمع أعيانُ المدينة للبحث في أمر العَرْش ، وفي مَن يخلُف الملكَ الراحِل . وكان في جُملة الحاضرين صاحبُ الدكّان الذي أودى « بجلال » إلى السجن . وبعد تبادُل الآراء ، وطرحِ المقترَحات ، اتّفقَ الحاضرون على أن يُولّوا الحُكْمَ شخصاً غريباً يكون لأهل المدينة أجمعين على السَّواء ، فلا يميل مع فريق دونَ فريق ، ولا يتأثّر بمصلحة دون مصلحة . وللحال خطرتْ لصاحب الدكّان صورةُ « جلال » ، فاهتزّ ندماً ، واهتزّ فرحاً : ندِم لأنّه زَجّ به في السجن ، وهو الغريب الذي لم يأتِ عملاً قبيحاً ؛ وفرِح لأنّه أيقن في سرّه أنّ « جلال » هو الشخصُ المطلوبُ لعرش المدينة . قال في نفسه : « إنّ وراء هذا الفتى سِرّاً . وإنّ في مَلامِحه سِيماءَ عِزّةٍ وشرف . فمن تُراه يكون ؟ »



وأخبر المجتمعين بقصّة «جلال»، وأبدى رغبته في أن يُنظَرَ في أمره لعله يكونُ هو الملك المطلوب. ووافق الجميعُ، ثم أرسلوا إلى السجن جنوداً أحضروا «جلال» إلى مكان الاجتماع. ولم يكن عجبُ «جلال» من رؤية صاحب الدكّان بأقلَّ من عجبه ساعةَ أُخرج من سجنه: «لماذا وُضع في السجن؟ لماذا أُخرج منه؟ وما بالُ صاحبِ الدكّان لا يتركه وشأنَه؟» وفيما هو حائر بأسئلته قَطَعَ عليه رئيسُ المَجْمَع تفكيره، إذ سأله:

ــ مَن عساكَ تكونُ أيها الشابُّ، وما قصّتُك؟

أطرق «جلال» قليلاً. ثم أجالَ نظرَه في الجَمْع وقال:

ــ أنا ملكٌ وابن ملك. تُوُفّي والدي فخلفْتُه،

ولكنَّ أخي غلبَني على المُلْك واستولى على العرش . فهربتُ منه خَوْفَ أن يغدُر بي ويقتُلَني، وهِمتُ على وجهي حتى وصلتُ مدينتَكم .

كان في لهجته صِدْقٌ ، وفي عينَيه جرأةٌ وثِقة . ومال الحاضرون بعضُهم إلى البعض الآخرِ يتهامَسُون، وكأنَّهم يتدارسون أمرَ « جلال » ، ويتشاورون في الرأي الذي يجب أن يتَّخذوه . ثم قام أحدهم فاقترح أن يتأكدوا أوّلاً من صِدق ما سمعوه . وللحال أرسلوا يَستدعُون أحد تُجّار المدينة ، وكان كثيرَ التّرْحال ، كثيرَ التَّجوال في البُلدان المُجاورة ، وقد عرَف مدينة « جلال » في ما عَرف من مُدن . وحين سُئل التاجر عن الأمور التي ذكرَها « جلال » صادَقَ عليها كاملةً ، فتأكَّد الحاضرون أنّ « جلال » ملكٌ وابن ملك ، وأنّه ، بالتالي ، هو الرجلُ المطلوب

لخِلافة مليكهم .

وقد وقف أحدُ العُقَلاء المُسنِّين يُعلن بلسان الجميع :

— إنَّ الله هو الذي أرسل إلينا هذا الشابَّ يوم وفاةِ مليكنا . وإنّ لله في ما فعلَ مشيئةً ، هي أن يكون هذا الشابُّ حاكماً لمدينتنا وملكاً علينا . وعلينا أن نَخضع لمشيئة الله ، ونَقبلَ بحُكم القضاء والقدَر .

★

ألبسُوا « جلال » ثيابَ الملوك ، وحملوه على فيلٍ أبيضَ قد زُيِّن بالسَّلاسلِ الذهبيَّة ، ورُصِّع جبينُه بالأحجار الكريمة . ثم طاف مَوكِب الملك في أنحاء المدينة كلِّها ، فيما كانت الجماهيرُ المرافقة له ، أو المحتشِدة في الطُّرُقات ، تَهتِف له وتنادي بحياته .

ولمّا وصل الموكب إلى باب المدينة شاهَد

« جلال » على الباب كتابـــةً بأحرُفٍ كبيرة . ولمّا قرأها عرف أنّها الأقوالُ التي كتبها أصحابهُ الثلاثة كلٌّ بدوره لمّا أتوا إلى المدينة يَعملون . فأشار إلى أحد مُرافقيه ، فاقترب منـه ، وطلب منه « جلال » أن يضيف إلى الكتـابات السابقة هذه العبارةَ : « ألاجتهادُ ، والجمال ، والعقـل ، وما أصاب الإنسان من خير أو شرٍّ ، إنّما تجري بقضاء الله وحُكمِه » .

ولكنْ ، تُرى ، ماذا جرى لأصحاب « جلال »؟ لقد بقُوا في مكانهم ينتظرون عودته . ولمّا مضى اليومُ الثاني على غيابه اضطرَبوا ، وقاموا إلى المدينــة يَستطلِعون خبرَ تأخّره ، والخوفُ يتأكّلُ قلوبهم. وما إن وصلوا إلى الساحة العامّـــةِ حتى شاهدوا فيلاً أبيضَ ضخماً يعلوه شابٌّ وَسيمٌ ، نبيلُ الطّلعة . وكم كانت دهشتهم عظيمةً حين عرفوا أنّ هذا الشابّ هو

صديقهم « جلال » ! وقفوا مَبهوتين من هذه المفاجأة ، ثم راحوا يسألون الناس المحتشدين عن الموكب ، وعن راكب الفيل ؛ فقيلَ لهم إنّه ملك المدينة الجديدُ ، قد رفعَه الوُجهاء والأعيان على عرش المدينة بعـــد موت ملكها الذي لم يخلّف وَريثاً . هنا سار الأصدقاء الثلاثة مع الموكب ، وراحوا يهتفون بكلّ جوارحِهم . ثم شاهدوا مُرافِقَ « جـــلال » يكتب على باب المدينة ، تحت كتاباتهم . العبـارةَ التي أملاها عليه « جلال » ، فابتسموا ، لأنّهم أدركوا أنّ كلَّ واحـد منهم قد نجح في ما عمـلَ . وراحُوا يشُقّون الصفوفَ حتى وصلوا إلى الفيل ، فوقفوا أمامَه صفّاً واحداً ، وصاحُوا :

ـ عاش الملك ! عاش الملك !

فابتسم « جلال » لأصحابه ، ورقص لهم قلبُه ؛ ثم

أومأ إليهم بطرف عينه أن يتبعوا الموكب .

★

فُتحت أبواب القصر تستقبلُ الملك الجديدَ ، والوافِدين معه من الأشراف والأعيان وعامَّةِ الشعب. ولمّا استقرَّ بهم المقامُ في الحدائق والساحات ، راحوا يمتّعون الأنظار بالألعاب والزّيناتِ والأسْهُمِ الناريّة .

إختلى الملك في غرفته ، وأرسل يطلُبُ أصحابه. ولمّا أقبلوا عليه هبَّ من مكانه يعانقهم ودموعُ الفرح تبللُ خدودَهم جميعاً . ثم دعاهم إلى البَقاء معه في القصر لمساعدته في تنظيم شؤون المدينة ، فقبلُوا شاكرين فرحين . وقد قال لهم:

ــ لقد آمن كلٌّ واحد منّا بمبدإ ، وعمل بموجبه ، فأصاب تَوفيقاً ونجاحاً . فلو جمعنا ما

نؤمن به كلُّنا لأتينا من الأعمال أحسنَها وأشرفَها .

وفي اليوم التالي انصرف «جلال» إلى تدبير شؤون المدينة بما اكتسبه في السابق من دِراية وسياسة . وقد ولّى أهلَ الفضل والرأي أعلى المناصبِ وأخطرَها شأناً ، وجعل الحكمَ ديموقراطيّاً حرّاً ، يصِلُ فيه صاحبُ الحقّ إلى حقّه من غير خوفٍ ، ويقول فيه كلٌّ إنسان كلمةَ الصّدقِ من غير جُبْنٍ. ويعمل فيه الحكّامُ والموظّفون على خدمة الشعب ، ويقدّمُ فيه الشّعب لأصحاب الإدارة كلَّ مساعدة وتعاون .

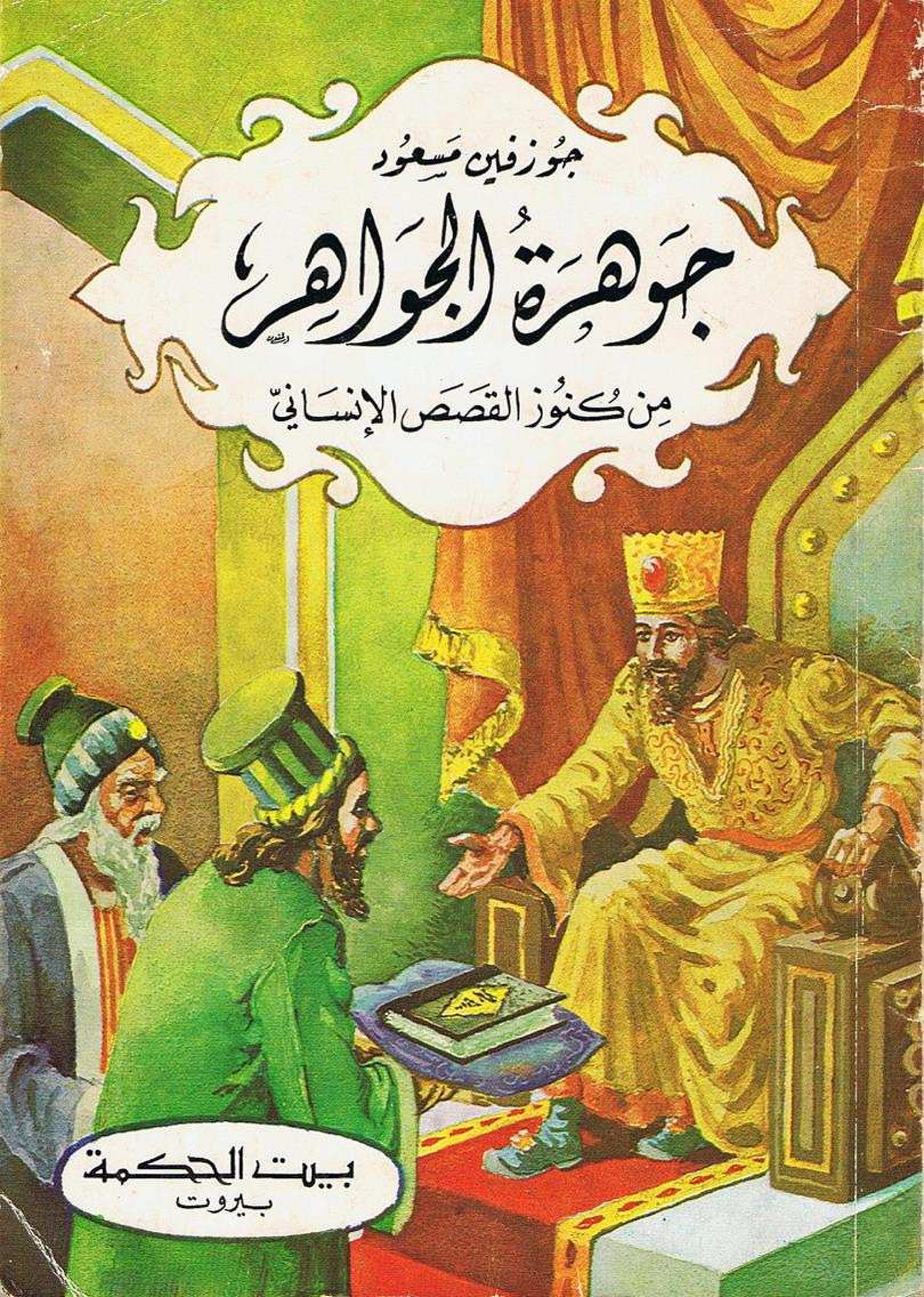
وعلى الأيّام انضمَّ إلى إدارة الملك نخبةٌ من القوّاد ، والأشرافِ ، ورجالِ الفكر ، الذين قدموا إليه من مَملكته الأُولى هَرَباً من بَطْش أخيه ، فكانوا له ، مع زملائهم من أهل المدينة ، خيرَ الحكّام والأعوان .

وكان « جلال » لا يأتي عمَلاً إلاّ بعد الرُّجوعِ إلى أقربِ مستشاريه إليه ، أي رفقـــائه الثلاثة الذين تقاسموا معه في الماضي حياةَ البؤس والتشرُّد ، ثم باتوا اليوم يتقاسمون معه فرحةَ التقدُّمِ والازدهار ، ولذَّةَ الاستقرار والطُّمأنينة .

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ ايار (مايو) سنة ١٩٧٧
على مطابع دار غندور ، بيروت .

١٩٧٧ - ٥ / ١١٨


جوزفين مسعود
جوهرة الجواهر
من كنوز القصص الإنساني
بيت الحكمة
بيروت